

هل النهضة الأخلاقية شرط للنهضة الشاملة؟

تركي علي الربيعو

يمكن القول إن ثقافة المراجعة العربية التي تترد بجذورها إلى هزيمة حزيران /يونيو 1967 التي يسميها محمد جابر الأنصاري بـ"أم الهزائم" قياساً على "أم المعارك" قد بدأت تعطي أكلها مع بداية القرن الجديد (انظر كتابه "في مساءلة الهزيمة، 2001")، فقد احتل سؤال الأخلاق في الثقافة العربية مكانه بعد غياب طويل، غياب لا يجد له ما يبرره كما يرى الأنصاري وغيره، ولكن الجابري يرى العكس من ذلك، فغياب سؤال الأخلاق في ثقافة المراجعة العربية يرتد إلى خلو المكتبة العربية من مؤلفات في تاريخ الفكر الأخلاقي العربي أو في تحليل نظم القيم في الثقافة العربية الإسلامية.

كان من الممكن لسؤال الأخلاق في الثقافة العربية أن يجد طريقه إلى العقل العربي مع أواسط قرننا المنصرم، وذلك في إطار المحاكمات الذهنية للثقافة الغربية وفي إطار النقد الأخلاقي لإفرازاتها السلوكية والثقافية على صعيد عالمنا العربي والإسلامي. كذلك في إطار المحاصرة الداخلية التي تولتها الأصوليات العلمانية إن جاز التعبير في محاكمتها للموروث العربي الإسلامي، وفي هذا السياق وجدت الدعوة إلى تجديد الفكر الديني طريقها إلى الفكر العربي باعتبارها تجديداً في الأخلاق ودعوة حارة إلى الأخلاق الحميدة في الإسلام. ولكن ذلك لم يحصل إلا بحدود استثناءات قليلة جداً كما يرى الجابري وهذا ما يلح به عبد الله العروي في بحثه عن مفارقات العقل العربي.

أدبيات العقل الأخلاقي

مع بداية القرن الجديد، يلحظ المتابع لحرية الفكر العربي المعاصر، حضوراً لسؤال الأخلاق في الثقافة العربية ودورها في المدينة العربية الفاضلة، لنقل المدينة العربية المرتقبة، فمع بداية هذا القرن الجديد تم تدشين بدء النظر في الفكر الأخلاقي العربي، وشهدت بدايات هذا القرن ثلاثة كتب تهتم بهذا المجال وتقع في المتن من ثقافة المراجعة التي يدعو إليها محمد جابر الأنصاري، والتي يراد لها أن تكون سداً في وجه التراجع الذي يسم الحياة الثقافية والأخلاقية العربية بميسمه، وهذه الكتب هي:

أولاً: "سؤال الأخلاق" للباحث المغاربي طه عبد الرحمن (بيروت، المركز الثقافي العربي، 2000)

ثانياً: "العقل الأخلاقي العربي" للمفكر المغاربي محمد عابد الجابري (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2001)

ثالثاً: "مساءلة الهزيمة" للمفكر الخليجي محمد جابر الأنصاري (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001)

ما يميز كتاب طه عبد الرحمن عن مجاليه هو أنه مساهمة في النقد الأخلاقي للحدائث الغربية مع الدعوة إلى تجديد الفكر الديني الإسلامي وذلك عبر البحث عن مكارم الأخلاق التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمها، وذلك انطلاقاً من أن الدين الإسلامي جملة أخلاق حية، ومن هنا ضرورة الجمع بين الأخلاق والدين باعتباره أصل الأصول.

وانطلاقاً من أن الكتاب يختص بالنقد الأخلاقي للثقافة الغربية، فقد أثرتنا أن نعالجه في مرة قادمة وعلى حدة لنفسح المجال للمساهمتين اللاحقتين في نقد العقل الأخلاقي العربي وأقصد مساهمتي الجابري والأنصاري.

على الرغم من أن الأنصاري يغمز من فناء الجابري ويتهمة بالكتابة العمومية لعامة المثقفين، وهذا ما يفسر انتشاره من وجهة نظر الأنصاري، إلا أنني أرى أن عمل الجابري في نقد العقل الأخلاقي العربي هو عمل غير مسبوق بجهد وتحليله ونتائجه.

كانت فكرة نقد العقل الأخلاقي العربي قد راودت الجابري مع نهاية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم، وهذا ما دفعه للتصريح مع بداية عقد التسعينيات من القرن المنصرم بأنه سيؤلف كتاباً عن العقل الأخلاقي العربي، سيكون بمثابة الجزء الرابع والأخير من رباعيته في نقد العقل العربي، وقد استغرق ذلك ما يزيد على عقد من الزمن.

لا يرى الجابري إمكاناً لنهضة عربية قادمة إلا إذا ترافقت مع نهضة أخلاقية جديدة تستلهم رؤاها من الماضي العربي الإسلامي الحنيف. فالجابري لا يتصور إمكاناً لمدينة عربية فاضلة بدون أخلاق التقوى والمروءة، ومن هنا تركيزه على الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، ومن هنا حفرياته الهامة في التراث العربي الإسلامي وبحته عن مبدأ الطاعة الذي اقترن بالسعادة ثم السعادة بالاستبداد، وكيف أصبحت طاعة الملك العضوض طاعة لله. من هنا بحثه عن جذور هذا المبدأ، أي مبدأ الطاعة الأردشيري (نسبة إلى الملك الفارسي أردشير) الذي انتقل إلى الثقافة العربية الإسلامية مع خلافة هشام بن عبد الملك، والذي قدر له أن يتبوأ مركز الصدارة مع العصر العباسي ليساهم في اغتيال المدينة العربية وأحلامها في بناء مجتمعي جديد لا يعرف الاستبداد.

الجابري كما هو بين، يعزو الأزمة الأخلاقية العربية إلى تغلغل التراث الفارسي المحكوم بمبدأ الطاعة في الثقافة العربية، ولذلك فهو لا يتصور إمكاناً لنهضة عربية إلا بالعودة إلى أخلاق المروءة والعمل الصالح (أخلاق التقوى) ومن هنا نفسر دعوته إلى دفن أردشير فما لم ندفن أردشير لن تكتب لنا نهضة جديدة.

الأنصاري هو الآخر يختم كتابه بالدعوة إلى نهضة أخلاقية جديدة يراها شرطاً للنهضة المرتقبة، ففي إطار مساءلته للهزيمة

الحزبانية التي يعتبرها "أم الهزائم" كما أسلفنا، وفي سعيه الى إذكاء ثقافة مراجعة تضع حدا للتراجع وتساهم في وعي التخلف، يقف الأنصاري عند التخلف الأخلاقي العربي معترفا بتقصير المثقفين العرب القوميون وغيرهم حيال المسألة الأخلاقية، ومقرا أن الأزمة الأخلاقية العربية هي أزمة قومية، وهذا ما يراه الجابري الذي يربط بين المرءة باعتبارها القيمة العربية العليا التي لا تستقيم المدينة العربية بدونها وبين القومية، ومن هنا فإن غيابها هو شاهد على أزمة قومية وأخلاقية تجتاح الأمة.

يؤكد الأنصاري على أن التخلف الأخلاقي هو احد أضلاع مثلث التخلف العربي الذي يجمع الى طرفيه تخلفا مجتمعيا يتمثل في سيطرة البنى المجتمعية ما قبل الحديثة على المجتمع، وتخلفا ذهنيا يفرض على العرب غيابا عن قيم العصر وإنجازاته الفكرية. ما يقلق الأنصاري هي تلك الازدواجية في السلوك اليومي للعربي التي تجعله ممزقا بين أخلاقية العلن والتي هي أخلاقية الجماعة المتجبرة وبين أخلاقية الخفاء، هذه الازدواجية ستصيب في العربي مقتلا، تجعله "كهرة تموء في الظلام" والتشبيه للأنصاري.

يعترف الأنصاري بأن الأزمة الأخلاقية في الحياة العربية تتقدم على ما عداها ولذلك فهي ليست أزمة عابرة، إنها أزمة عملية وواقعية، أزمة تطال العلاقات داخل المجتمع العربي الواحد بين أفرادها وفئاته وسلطاته وأحزابه. من هنا دعوته الى ثورة خلقية والى تعامل أخلاقي أصيل يستمد مفهومه من الإسلام، والى وقفة جادة عند الأخلاق فذلك شرط النهضة القومية المرتقبة.

لا يتقدم الأنصاري على طريقة الجابري في الحفر في طبقات الوعي المستلب الذي قادنا إليه مفهوم الطاعة الاردشيري. ولكنه يسوق لنا -أي الأنصاري - مجموعة من الملاحظات والانطباعات التي تؤكد على أن أزمنا العربية تترد في النهاية الى تخلف أخلاقي يمثل قاعدة مثلث التخلف العربي. من هنا تأكيد على أن ضرورة وعي التخلف باعتباره مدخلا للخروج منه، ولكن الأنصاري وبالرغم من رؤيته لبعض النجاحات في الثقافة العربية، إلا انه لا يزال يعيب على هذه الثقافة كثرة وعودها وأوهامها، لنقل مع الجابري هروبها المستمر الى الإمام وهذا ما يرشح أزمنا الأخلاقية العربية التي هي في النهاية أزمة قومية الى الاستمرار حتى لا نقول الترددي؟ والسؤال المطروح: هل من سبيل الى الخروج من هذه الأزمة؟ من وجهة نظري إن ما يقدمه الجابري في نقد العقل الأخلاقي العربي يفتح آفاقا ويعزز من قيمة ثقافة المراجعة وسعيها الى وقف التراجع ومن هنا أهمية هذا الجهد الاستثنائي له وهذه الالتفاتة الهامة من الأنصاري؟.